هراقليوس فى المعبد

البَطَـــل

للأستاذ معروف الارناءوط

كاتب « سيد قريش » وصاحب « فتى العرب »

تحت المنشور فى العصر الماضى

كان معبــد القديسة هيلانة غارقاً فى الصمت ، فليس فى نواحيه أثر من صلاة ، ولا تنير محارمه ومناسكه هــذه الشموع الكثيرة التى تنير أروقة كنيسة القبر المقدس ؛ وقد جفاه المرتلون والعازفون ، فما يسمع هراقليوس فى عزلته صوتاً يحرك فى نفسه شعور التقى والورع ، بل ليس فى هذا الرمس الذى انحدر اليه ، قسيس يطمئن الى لباسه أو يستريح الى إرشاده ونصحه ، ولو كان هنالك تقى لخف اليــه وسأله أن يترع نفسه بالعزاء الذى يحبه ويشتاقه

ثم عاف هراقليوس الهيكل وأقبــل على الجُدُر يتجسسها ويتفحصها ويستند اليها ، وهو يحاول الخروج من المعبد ؛ وإنه ليمشى فى لين ورفق حذر السقوط إذ صافحت عيناه زلّة أخرى صورة ذلك الأعمى ، فوقف ينظر اليها على ذلك النور الضعيف الذى يرسله القمر من صدوع فى القبة الفيحاء ، فلما حدّق اليه ارتد به الخاطر فى خفة الوميض الى حياة « موريس » التعس الذى سوّغ الظالم « فوكاس » قتــله مع بنيه فى ليلة من ليالى الخريف الحافزة . وقد كان « موريس » قيصر الرومان وسيد هذه الدنيا طولا وعرضاً ، فألّب « فوكاس » عليــه الغوغاء وهاجمه وهو نائم فى قصره ، ففر الى جزيرة « انتيغون » على الساحل الهادئ فى بحر « مرمرا » ولحق به بنوه وصحبه ، فما تريّث الطاغية « فوكاس » فى اللحاق به حتى أدركه وقتله شر قتلة بعــد أن غمس يده فى دماء بنيه الخمسة ، ولم يفلت من هذا الموت الكريه غير فتى صغير اسمه : « كريستيا » ، وغير فتاة صغــيرة اسمها : « سافو » ومعهما تلك الأمبراطورة التعسة « تيوفانو » ، ثم ثار الشعب على « فوكاس » الذى لبس التاج ، وكان « هرقليوس » زعيم هــذه الثورة وبطلها ، وكان شعاره وشعار الثائرين الذين صحبوه الى قصر الطاغية اسم الصغير : « كريستيا » ، وكان ينبغى لهراقليوس بعد ظفره بالقاتل السفّاح أن يضع على رأس الفتى تاج أبيه . فما فعل إرضاءً لمطامعه ونزواته ، ثم كان من أمر « كريستيا » أن توارى عن الناس خشــية أن يفتك به أنصار هرقليوس ، وطويت الأحاديث عنه وما عاد رفاق أبيه يذكرون من أمره وأمر أخته وأمه شيئاً !

لقد كانت خيالةُ الفتى الأعمى فى الصورة الماثلة تشبه خيالة كريستيا ، فهتف هرقليوس وهو ينظر اليها : « كريستيا ! كريستيا ! » ثم وضع يده على عينيــه كأنما هو يحاذر ألا ينظر الى الصورة زلةً أخرى ، ولــكن الذكريات المؤلمة التى تعاورت نفسه فى المعبد المقدس ، ظلت على عُنفوانها وعنفها ، فما كان يستطيع أن يُفلت منها ، ثم زحمته هذه الذكرُ الطاغية وانقلبت به الى تلك الليلة الصاردة التى ابتعث فيها بعض رجاله على الذهاب الى « نيكوميديا » تحت الوَدْقِ المنهمر ، فذهبوا وبعــد قليل عادوا ومعهم فتاة حسناء أحبها قيصر حتى شغفه حبها ، ثم جاءوا بضحيتهم الى القصر وألقوا بها الى سرير فى غرفة ينام فيها هراقليوس وعلى حوائطها صور الصالحين والرسل !

لقــد ناشدته تلك الفتاةُ انتصاراته لعله يستبقى عفافها فلا يدنّسه ، فلما لم تنجح فى استمالته أو مضت بيــدها الى صور الصالحين والرسل ، وسألته بحقّ هؤلاء ألا يعيث بطهارة فتاة يتيمة كان أبوها من أحسن المنافحين الذائدين عن حياض النصرانية ، فما أمالته ذكريات انتصاراته عن أهوائه ، ولا ثنته صور الصالحين والرسل عن منازعه ، فراح يحتبس الفتاة العانية بين ذراعيه المشبوبتين غير ذاكر فضل أبيها النبيغ البطل فى تأثيل انتصاراته وتوثيق غاراته !

اسم هذه الفتاة « بليتزا » واسم أبيها الغطريف « تيوفان » ، ذكر هراقليوس هذا كله فيئس وابتأس وترجف ورعد ، ورأى إلى كوارث حياته كأنها تجتمع فى حضيض البيعة الصغيرة ، فأدرك وهو الذكى الألمعى لماذا لم تستقبله الأماكن الطاهرة بمثل تلك الحماسة البالغة التى لقيها فى معابد الوثنية ، فصاح صيحة ألمية وخر على شفتيه اسم « بليتزا » ، فردد هذا الاسم فضاء المعبد الساكن ! وراح الرجل الذى دخل بيت المقــدس فى حاشية من بطاريق

الجيش وبطاريق الكنيسة يغمس يده فى صدره ، فيمزق ثوبه القيصرى ويرى بدوره وذهبه الى حضيض المعبد ، وشفتاه تتحركان بذلك الاسم الذى ما كان يفكر فيه قبل هذه الليلة :

بليتزا ، بليتزا !

كان هذا الاسم أول ألحان هراقليوس فى الأماكن الطاهرة ، ولكن هذا اللحن الشجىّ لم يلبث أن استحال إلى نواح مذيب ، فجعل الرجل المنتصر على الوثنية ينشج ويده تتجسس الممدّ الرخامية ، ثم جلس على الأرض ووارى عينيه حتى لا يرى الى هذه الصور !

ولما فتح عينيه وردد نظراته فى الجدار القائم إلى يساره أخذته صورة جديدة لم ينظر اليها من قبل فحدّق فيها على زهده فى الصور وابتعثته هواجسه الثائرة على الوقوف حيالها وفمه لا يزال نَدياً بذلك الاسم الذى ألقى به إلى جوف الكنيسة الكبرى ثم ترعد وترجف وانفلت من صدره صياح أليم وارتد القهقرى مسفوعاً عانياً ، وأخذت الصورة التى أبصرها قائمة إلى يساره تتحرك وتهتز ، ثم جفت الجدار ومشى ناسها فى صف واحد إلى ناحية هراقليوس ، فكان كلما تراجع أمام أشباحها أخذته هذه الأشباح أخذ عزيز مقتدر ومنعته أن يشق طريقه !

فأى صورة هذه ؟ وكيف قدر لأشباحها أن تترك مكانها على الحائط لتمشى فى حضيض المعبد كما يمشى الناس ، وتنظر بعيون فيها من وميض الحياة وإشراقها ما فى عيون الأحياء من وميض وإشراق !

ولما أوشكت هذه الطيوف الخرساء أن تزحمه حدق فيها عن كثب فاذا هى أربعة أشباح أحدها مشوه الخلقة ، محمرّ الصدر ، تضطرب فى وجهه عينان غائرتان وإلى جانب هذا الشبح ثلاث نساء ، فهن امرأة عمياء على وجهها الصبيح شىء كثير من النعماء ، وكانت العمياء تلبس السواد ، وقد سدرت شعرها الأشقر على كتفيها وراحت تستند إلى ذراعى فتاة ما تزال حديثة عهد بالحياة ، فما قدر هراقليوس أن يتعرف إلى خيال المرأة الثالثة ، فصدف عنه وتهافت على العمياء ينظر اليها فى خوف وإشفاق ، وأخذ فمه يردد اسم « بليتزا » بينما ضياء القمر لا يزال يتسرب من صدوع فى القبة إلى الحوائط والجدر ، وبينما ملابس الأشباح قد حاكت فى حمرتها وصفرتها وزرقتها ألوان الفسيفساء التى أخذت تخطف على العمد والأقواس والقناطر ، ولقد خيل إلى هراقليوس أن الصورة التى خرجت من الحائط الشمالى ما عادت تمن فى اللحاق به فسخر من هذا الجنون الذى تولاه ، وتضاحك حتى لقد سرى ضحكه إلى أنحاء المعبد وأدرك أن قيصر الرومان قد أفرط فى مخاوفه ، وما ينبغى له أن يفرق من صورة تراءت له على الرخام ، ولما اطمأنت نفسه جعل ينظر إلى يده فاذا عليها ذلك الدم الذى تسايل من جبينه ، وللمرة الأولى أخذته عزة الزعيم الغطريف ، فأزرى بالشعور الذى رافقه فى مطافه ، وهو شعور يشعر به الدهماء ، ولا يشعر به الزعيم تحت اللواء

وفيم هذا الخوف ؟ ولماذا تميد نفسه لذكريات الماضى ، وليس فى هذه الذكريات ما تنكره السلائق والشيم ؟ نعم ، لقد أحبّ فى مواضى أيامه امرأة اسمها « بليتزا » ، وأحب القياصرة من قبل نساءً من الشعب ، ثم ماتوا ، ولم تقرضّ نفوسهم المخاوف ، وحيث قد أحبّ هراقليوس فتاة من بنات الشعب فأولى له أن يطمئن إلى هذا الحب ثم أولى له أن يطمئن إلى غده ، لأن « بليتزا » التى أحبّ صارت فى القابرين .

ولما رَفعَ رأسهُ شامخاً مستكبراً ، وأنحى ناحية الباب يريد الافلات من هذه الهوّة الراعبة ، لحق به الأشباح فى صف واحد ، فما حفل بهذا المشهد ، وخُيل إليه أن اهتزاز الصورة ما كان غير وليد تصوراته وسبحه ، ولكن المرأة العمياء أدركته عند الباب وهتفت باسمه « هراقليوس ! »

وفى هذه الفينة لم تفته الحقيقة الراعبة فعض يده من جزع وإشفاق وسرى جَرسُ العمياء إلى نفسه كالصليل ، فتلفت فاذا التى تصورها خيالا تقبض على يده فتناديه : هراقليوس ! هراقليوس ! انظر إلى وجهى ملياً وقل لى ماذا رأيت عليه ؟

وأخذت « بليتزا » تجذبه إلى ناحيتها فشعر بحرارة أنفاسها ووقف ينظر إليها مبهوتاً حائراً ثم أطبق عينيه كأنما هو يريد ألا يرى إلى صورتها الشجية ، وظلت « بليتزا » تستجيشه وتحركه وتذكر له الماضى حتى أفاق وفتح عينيه على الصورة الجاهمة صائحاً :

— بليتزا ! بليتزا ! قالت :

— نعم بليتزا ، تلك الفتاة التى جئت بها من حجرتها فى

« نيكومديا » إلى حجرتك فى القصر ورحت بها إلى سريرك ، فتوسلت إليك ألا تعبث بعفافها عن كثب من صور الصالحين والقديسين والرسل ! نعم أنا بليزا ، ولست خيالا كما توهمت ، فاذا كنت لا تزال فى ريب من أمرى ، فهاك يدى فجسها ، ودونك صدرى فاستمع إلى وجيبه ، وقل بعد ذلك إذا كنت لا تزال تحلم أم أنك تؤمن بهذا الذى ترى !

لقد كان البرد الشديد ، وهذا الخوف الذى تولاه ، وذكريات الماضى التى تجددت فى نفسه ، وانبعاث بليزا فى المكان النابى الملىء بأوجاع النصرانية وآلامها ، وهذه الأشباح التى رافقته فى مطافه ، كان هذا كله مثار أحزان جديدة فى نفسه ، فما عاد يستطيع أن يجنب عينيه النظر إلى رفاق بليزا ، فرأى إلى « نفتالى » ثم إلى « بنيامينا » ثم إلى « مارية » ! وفتح فمه ليتكلم فما خرج لسانه على شفتيه ، فأومض بيديه كأنه يريد أن يسأل المرأة العامدة عن رفاقها ففطنت الى أمره وقالت له :

ـ هذه الصغيرة التى ترى هى ابنتى وقد أسميتها « مارية » تحبباً الى مريم والدة السيد المسيح ، ولقد تسألنى عن أبيها ، ألا فاعلم يامولاى أن أباها هو هذا الرجل الذى سالت نفسه على حوائط الكنيسة فى هذه الليلة القمراء ! واسمه هراقليوس ومكانه فى قصر « الشالسيه » عند شاطىء البحر الأزرق فى القسطنطينية !

فانطلق لسانه ساعة رَنَّ فى سمعه اسم مارية وانثنى صائحاً :

ـ ابنتى ! ابنتى ! فقالت العمياء :

ـ ابنتك وابنتى معاً ! . . . فقال :

ـ وهذا ؟ فصاحت العمياء :

تَقَدَّم أيها السيد نفتالى وقل له أىّ رجل أنت ، واحسر له عن أمر هذه الفتاة التى هى ابنتك ، فتقدم ذو القروح من قيصر وكشف عن صدره صائحاً :

اسلك أيها الولى الذى تَفَيَّأ أعلام الحرب ، واستمع لأناشيد النصر من شواطىء أفريقية الى شواطىء البحر الزاخر فى بيزنطية ، لم تنس ذلك الرجل السرى الذى كان يجوب شطآن البحر الأحمر باسمك ، ثم يؤوبُ الى دار ملكك وقد ملأ سفنه بطيوب الهند ونفائس عدن

كان الناس يعيدون ذكرى ليلة الميلاد ، وكنت فى جملة الذين أمالهم التُّقى والورع الى الصلاة ، وكان الناس يَرَوْنَ فى « نفتالى » وذلكم هو اسمى البغيض الكريه ، سَيِّد بلاد الجليل فى ثرائه وترفه ، فحسدنى الجميع ، وأخذتهم الغيرة من ذيوع أمرى ، فلما صليت مع المصلين راحت عيناى تنظران الى صورة للسيد الناصرى ، فألقيت إليها بنجوى القلب ، وسألت الرجل الذى طربت جبال الجليل لصوته أن يباركنى ، ثم رجعت الى منزلى لأمضى ليلة العيد حيال طفلتى وامرأتى ، وفى الصباح أحاط الجند بمنزلى وتبارى الناس فى سبى ولعنى ، ثم خرج بى الجند الى الميادين ، وقرئ على أمر قيصر باحراق ، لأننى نظرت فى صلاتى الى صورة السيد ، ولأن هذه الصورة وجدت مطروحة على أديم المعبد ، ثم استبدل قيصر التحريق بالتغريب ، وألقى بى رجاله فى القفرة النائية بجوار البحر الميت ، وماتت امرأتى من الألم والغمّ ، وعاشت ابنتى عيشة لا تشرّف حياتها ! . . . هذا هو كل أمرى فما أظنك نسيت نفتالى ، ولا أراك نسيت « بنيامينا » ابنته التعسة

لقد جئت هذا المكان الطاهر من مكانى السحيق البعيد ، لأرى اليك وأسمعك دعاء وعيته وحفظته ، ثم علمته ابنتى لتجهر به أمام السيد الذى رد الى المحزونين والماحلين ما هم فى حاجة اليه من شباب وعافية ، وطلاقة وبشر . انظر يامولاى الى ابنتى ! لقد كانت فى عفافها ونقائها كهذه الصورة التى تمثل السيّد فى طفولته ، فعبث بها رجالك ، هؤلاء الذين جابوا العالم كله باسم النصرانية ، فلما رجعوا الى مهدها رجعت اليهم سلائق الوثنية فقتلوا البرىء واضطهدوا البريئات !

ولما سَكَتَ « نفتالى » ، قالت « بليزا » : « لقد حرمنى الألم والنقى والسهد ضياء عينىّ فما نعمت بالنظر إلى محيّا الطفلة التى انبثقت من دمى ، وعشت فى « عين كارم » عيشة راعية لا تليق بمن كانت ابنةً لتيوفان البطل ! وكانت آلامى تنمو بجانب نموّ ابنتى حتى كرهت الحياة ومللت مقامى بين الأحياء ، ولكن صوت الطفلة التى أحببت جنبنى موتاً ما كنت أجد فى غيره راحةً لنفسى ، ثم نذرت لأمضين إلى المسيح فى مهده فأسمعه بَثى ، فاذا لم يسمع انطلقت إلى لحده وأيقظت رفاته

وكنت عالةً بوصولك الوشيك إلى الشام فرجعت أسأل عنك فاذا قيل لى إنك بلغت فى زحفك شواطىء الفرات ، حلّق وهمى فى فضاء النهر الزاخر ، وطفت هواجسى ، فلمنتك وأسرفت

فى اللحن ، وإذا قيل لى إن قيصر وطىء البوادى مرب خيالى على الرمال وقذف فى البغض والحقد وانى لأقسم لك أن بغضى فى احتدامه وثورته مقتبسٌ من سموم الرياح الهوج ساعة ترتمى على الرمل فتذروه فى كلّ فضاء ! فاذا قيل لى إنك نزلت فى منازل عدوك عنـد المدن الوارفة الظلّ نزل بى شعورى حيث أنت ورفعت صوتى لأمنعك من غناء جندك الظافر ، وهكذا كنت أتبع ظلك وأترسم خطوك وأنا فى القرية المتواضعة فألحق بك إلى الأنهار والرمال وإلى المدن حتى أطلّ شبحك على المدينة المقدّسة وسمعت عزيف أبواقك ولم يفتنى صليل سلاحك فجفوت مكانى فى « عين كارم » وجئت « بيت لحم » فدعوت عليك ورافقت موكبك إلى كنيسة « القبر المقدّس » ، ومازلت أرقب خطوك حتى خلت الكنيسة من المصلّين والزائرين ، وحتى رأيتك تنحدر إلى محراب القديسة هيلانة فسبقتك إليـه ووقفت مع رفاق فى الألم والعذاب أنظر بعينيّ قلبى إلى نفسك السائلة على الحوائط والجدر ! هراقليوس ! هراقليوس ! كيف أنت ؟ كأننا لم نفترق وكأن الأيام لم تفصل بينى وبينك وكأن تلك الحجرة التى ازدانت بتصاوير الصالحين والرُّسُل ، مازالت تحتوينا معاً ! ولكن مصاير الناس تعاورها الحذف والتبديل فقد كنت لسنين خلَت ذلك الرجل المزهوّ بانتصاراته ، وكانت « بليتزا » التى فزعت إلى الناصرىّ فى الليلة الليلاء تنظر فى كثير من الزهو إلى مصرع ذكائك ! . . هراقليوس ! ناشدتك الله أن تقول لى كيف أنت ؟

* * *

لم يكن فى ميسور هراقليوس أن يرفع عينيه الى هذه الأطياف فلقد بَرَّح الرعب به تبريحاً أليماً ، وأعمى يأسه وشجونه خيال بليتزا ، وخيال ابنتها واستجاش جواه ذلك العدم الفريح الذى حسر نفتالى عنه ، فتقاصر وتصاغر وراح جاثياً على قدمىّ العمياء مستغفراً تائباً ، فسمعت مارية ابنته صلاته الهامسة ، فدلفت اليه وقالت : أبى ! أبى ! فما سمع نداءها الرقيق الشجى ، بل ظل يتخافت بصوته ، بينما كان نفتالى وبنيامينا يصلّيان فى زاوية المعبد صلاةً لم يخالطها كثير أو يسير من البغض ، وبينا مارية الصغيرة تنظر الى أبيها الدميع بعينين رحيمتين بريئتين

وكان ضياء القمر لا يزال يتسرب من صدوع فى القبة الى أرض المحراب ، فينير الصور التى على الحوائط والجدر . ثم ينثر أشعته الخفيفـة على وجوه الأربعة الذين أتموا نذورهم فى الليـلة الرهيبة التى أرادها هراقليوس خاتمة صومه وحجّه !

رَزَحَ قيصر تحت وقر هـــذه الصور القاتمة ، فأغفى على الحجارة ، وسبحت نفسه فى عالمٍ قصىٍّ بعيـدٍ ، فلما استوثق نفتالى من إغفاءته تلفت الى بليتزا وقال لها : « لتذهب يا سيدتى قبل أن يستفيق ، فلقد قضينا نذورنا ولم يبق لنا ما نعمله فى الأماكن الطاهرة ! فقالت بليتزا : « أترجع الى البحر الميت أيها السيد نفتالى ، قال : نعم سأرجع الى منفاى مع ابنتى ، قالت : فاذا أبصرك الحرس فماذا تقول ؟ فقال : لن يبصرنا الحرس يا سيدتى ، لأننا سنخرج من بابٍ خفىّ ، وما أكثر الأبواب الخفية فى هذه المحاريب ! فقالت : افعل ما تريد فعـله حماك الله ورعاك ! ثم نظرت الى هراقليوس النائم نظرةً راثية وألقت بنفسها بين ذراعىْ ابنتها هامسة : لقد عفوت ! . . . » فبرقت أسارير الصغيرة من الفرح وقالت :

ـ إن الله قد عفا يا أماه !

ولم يشأ نفتالى أن يكون فى معزلٍ عن هذه الرحمة التى خالجت قلبى الأمّ والبنت ، فأخذ بذراع ابنته وقال لبليتزا :

ـ لقد عفوتُ يا سيدتى وعفت ابنتى !

وفى خفة البرق صعد الأربعة سُلّم المحراب فاستقبلتهم جميعاً سُدّةٌ فاخرة تغشى الكنيسة الكبرى !

دمشق معروف الارناؤوط

وزارة المعارف العمومية

تقبل العطاءات بمكتب حضرة صاحب العزة سكرتير عام وزارة المعارف بشارع الفلكى بالقاهرة لغاية الساعة العاشرة صباحاً من يوم ٢٧ يولية سنة ١٩٣٥ عن توريد أدوات الأشغال اليدوية اللازمة للمدارس فى السنة الدراسية ١٩٣٥ — ١٩٣٦ مثل ورق مقوى برستول ، وورق مجزع للتجليد ، وخشب حور ، وقطع صغيرة من خشب الجوز الأمريكانى ، وسفنج ، وسيكوتين وغيرها

ويمكن الحصول على شروط المناقصة نظير ١٠٠ مليم النسخة من مخازن المعارف بشارع درب الجاميز بالقاهرة